التصوير الفني والعقيدة
في القرآن
للأستاذ سيد قطب

طال الجدل بين الأستاذ عبد المنعم خلاف وبيني حول هاتين النقطتين منذ أصدرت كتابي « التصوير الفني في القرآن » ولم يكن بد من أن يطول ، فالموضوع في ذاته خصب يحتمل الطويل ، والأمر بيني وبين الصديق في هذا الجدل ليس فكرة عارضة ولا خاطرة سريعة ، إنما هما نظرتان مختلفتان للعقيدة بل للحياة . فما سجلته في كتابي وما ناقشت به الأستاذ عبد المنعم هو خلاصة عقيدتي ورأيي وفلسفتي الخاصة المبنية على كل تجاربي النفسية والذهنية في رحلتي على هذه الأرض . وما كتبه في مناقشتي هو امتداد لآرائه في كل ما قرأت له ، وبخاصة في كتابه القيم « أومن بالإنسان » ، ذلك الكتاب الذي أقعدني المرض أربعة أشهر عن أن أفرغ له بما يستحق من النقد والتنويه

* * *

وقد تشعب الجدل بنا في تفصيلات وجزئيات لا مجال لإعادة الحديث فيها بعد هذا الأمد الطويل ، فأحب أن أرد المسألة إلى أصلها الواحد الكبير لتكون لدى القراء منها صورة كلية يشارك في دراستها من يشاء

المسألة في صميمها تتلخص في كلمات :

أمن الممكن أن نعهد إلى الذهن وحده بأمر العقيدة ، وأن نقيم هذا البناء الضخم في الضمير الإنساني على أساس القوة الذهنية ومنطقها المعهود ؟

أما أنا فلا أتردد في الإجابة بالنفي على هذا السؤال ، فأنا لا أثق بالذهن كل هذه الثقة ، ولا أعتقد أنه ينهض وحده لحمل هذه الأمانة ؛ وإنما قصاراه في هذا المجال أن يكون منفذاً واحداً من منافذ العقيدة إلى النفس الإنسانية — وليس هو مع ذلك أقرب المنافذ ولا أصدقها — وإنه لن يصل إلى شيء يذكر إلا بوحي من البداهة وهدى من البصيرة ، البداهة التي تدرك الحقائق الخالدة في هذا الكون منذ النظرة الأولى وبلا فلسفة ذهنية ولا قضايا منطقية ، والبصيرة التي تتصل مباشرة بالله فتدرك وجوده إدراكاً كلياً قد يعجز الذهن عنه لو تركنا له وحده المجال . ومن هنا كان « المنطق الوجداني » الذي يعتمد على هذه الحقائق الخالدة ، وعلى إدراك البصيرة لها وإقرار البداهة بها ، هو الطريق الذي سلكه القرآن في تقرير العقيدة الإسلامية ، لأنها « عقيدة » ، وكل عقيدة مقرها الضمير الإنساني الكبير لا الذهن البشري المحدود الصغير

وأما الأستاذ عبد المنعم ، فيبدو أن ثقته بالذهن كبيرة إلى حد أن يعهد إليه بالأمر كله ، ويأتمنه عليه في النهاية !

على أنه كان يكون هناك محل للجدل ، لو أنني أخرجت الذهن كلية من المجال ، ولكنني لم أرد هذا ، وليس في كتابي ما يدل على أنني أردته ، وقد نقلت منه في كلماتي الماضية نصوصاً كثيرة ، ثم لقد قرأه الكثيرون أيضاً ، ولست أعتقد أن أحداً من القراء قد فهم أنني أطرد الذهن من الحلبة ؛ إنما أنا أضع الذهن في مكانه المناسب ، فلا أغفله إغفالا في مجال العقيدة ، ولكنني كذلك لا أتجاوز به هذا المكان المحدود

وأحب أن أصحح هنا وهماً صححته من قبل في الكتاب في هذه الفقرات :

« كانت وظيفة القرآن إذن أن ينشئ هذه العقيدة الخالصة المجردة — عقيدة التوحيد — وموطن العقيدة الخالد هو الضمير والوجدان — موطن كل عقيدة لا العقيدة الدينية وحدها — وأقرب الطرق إلى الضمير هو البداهة ، وأقرب الطرق إلى الوجدان هو الحس . وما الذهن في هذا المجال إلا منفذ واحد من منافذ كثيرة ، وليس هو على أية حال أوسع المنافذ ولا أصدقها ولا أقربها طريقاً .

« وبعض الناس يكبرون من قيمة هذا الذهن في هذه الأيام بعد ما فتن الناس بآثار الذهن في المخترعات والمصنوعات والكشوف وبعض البسطاء من أهل الدين تبهره هذه الفتنة فيؤمن بها ، ويحاول أن يدعم الدين بتطبيق نظرياته على قواعد المنطق الذهني أو التجريب العلمي !

« إن هؤلاء — في اعتقادي — يرفعون الذهن إلى آفاق

فوق آفاقه . فالذهن الإنسانى خليق بأن يدع للمجهول حصته ، وأن يحسب له حسابه . لا يدعو إلى هذا مجرد القداسة الدينية . ولكن يدعو إليه اتساع الآفاق النفسية ، وتفتح منافذ المعرفة . « فالمعقول » فى عالم الذهن ، و « المحسوس » فى تجارب العلم ، ليس كل « المعروف » فى عالم النفس . وما الفكر الإنسانى — لا الذهن وحده — إلا كوة واحدة من كوى النفس الكثيرة . ولن يغلق إنسان على نفسه هذه المنافذ ، إلا وفى نفسه ضيق ، وفى قواه انحسار ، لا يصلح بهما للحكم فى هذه الشئون الكبار » .

والأمر الذى أريد أن أقرره ، وأصحح به وهماً قد يرد على بعض الأذهان : هو أن العقيدة أكبر من الذهن ، فلا يعيبها ألا تعتمد على الذهن وحده ، وأن يكون لها منافذ إلى الضمير الإنسانى غير هذا الذهن المحدود .

ولم يفتنى أن أشير إلى هذا فى ختام الفصل الذى عقدته فى الكتاب تحت عنوان « المنطق الوجدانى » فقد جاء فيه :

« لم يكن المنطق الذهنى ليصل إلى شىء لو اتبعه القرآن ؛ لا لأن ما فيه من حقائق لا يثبت لهذا المنطق ؛ ولكن لأن العقيدة لا ينشئها هذا الجدل . إنها دائماً فى أفق أعلى من هذه الآفاق . وما يعيب العقيدة أن يكون عمل الذهن فيها ضئيلا . فما الذهن إلا قوة صغيرة محدودة ، تتعلق باليوميات ، وما هو بسبب من اليوميات » .

والذى أعتقده أن « المجهول » قسط أساسى من بناء كل عقيدة — ومن عقيدة الإسلام بالطبيعة — وحين تخلو العقيدة من روعة المجهول تستحيل رأياً ، ولا تملأ جوانب النفس الإنسانية جميعاً .

وما دامت للمجهول حصته فى العقيدة ، فهناك مجال لغير الذهن بكل توكيد . والعقيدة — أية عقيدة — كلٌّ لا يتجزأ فى داخل النفس ، وإن تجزأت قضاياها وتعددت أمام الذهن . والشك فى قضية منها معناه تخلخل جميع قضاياها

ويجهد الذهن ما يجهد فى فلسفة العقيدة فيكون له هذا ، ولكن بعد أن تكون العقيدة قد استقرت فى الضمير ، وسلكت إليه طرائق شتى ليس الذهن إلا واحداً منها ، لم يكن ذا أثر حاسم ولا أثر ظاهر فى عملية البناء .

وإنه لحسب الذهن أن تكون وظيفته هى تفسير هذه العقيدة بعد بنائها . تفسير ما يستطيع تفسيره منها ، أما ما لم يستطع ، فليقف على أبوابه هناك ، فقد استلهمته النفس من منافذها الأخرى التى لا شك فيها

أما الاستدلال بالآيات التى استدل بها الأستاذ على أن الذهن هو محور الإثبات فيها ، فلا أزال فيه عند رأيى الذى أبديته : وهو أن القرآن كان أعرف بالنفس الإنسانية من الأستاذ عبد المنعم فلم يسق الآيات سياقته لها ، بل تركها فى إجمالها الذى يخاطب قوى النفس جميعاً ، ولا ينفرد بالذهن المحدود فى نقاش جدلى قابل للردود الجدلية على طريقة الذهن المعهودة ...

على أن هناك واقعة تاريخية لا سبيل إلى الجدال فيها : هى أولئك الذين آمنوا ، أو كثرتهم التى لا يتخلف عنها إلا أفراد . وهؤلاء لم ينتظروا من يفلسف لهم الأدلة ، حتى يؤمنوا بالمنطق الذهنى ؛ إنما هم استراحوا إلى نصوع هذه العقيدة ونفاذها إلى نفوسهم من شتى منافذها ، فآمنوا مطمئنين !

* * *

أما القضية الأخرى التى يجادلنى فيها الأستاذ ، فهى قضية التصوير الفنى فى القرآن ... وهى أيسر وأوضح من القضية الأولى

فأما أنا ، فرأيى أن إدراك التصوير القرآنى فى هذا المستوى المعجز إدراك لسر الإعجاز فى تعبير القرآن .

وأما هو ، فيرى ألا أذكر كلمة الإعجاز هذه ، لأن هذا السر يجب أن يبقى مجهولا أبداً حتى يتحقق له وصف « الإعجاز »

ولقد قلت من قبل ، وأكرر اليوم : إنه ليس من الحتم أن يكون الأمر المعجز هو المجهول السر ، فيكفى ألا يستطيعه أحد مع التحدى . ولم يستطع أحد أن يرقى إلى مستوى التناسق الفنى فى هذا التصوير لم فادراكه إدراك لسر الإعجاز — على الأقل فى هذا الأوان ، وليس ما يمنع من ظهور أسرار أخرى غير ما ظهر منها حتى الآن —

على أننى كنت دقيقاً فى التعبير ، فلم أقل سر الإعجاز فى